الفصل الثالث

الفلسفة الأولى

يحد أرسطو الفلسفة الأولى بأنها « العلم الذى ينظر فيما هو أيس ، أى فيما هو موجود بالفعل فقط . أى فى صفة الوجود الذى له وفى خواصه بما هو كذلك » . أما كون علم موجودا هناك بهذه المرتبة والكيفية ، أو يجب أن يكون هناك فمؤكد مجزوم به تأكيداً مؤسسا على البرهان واليقين .

وذلك : أن كل علم جزئى فانه إنما يبحث عن قسم محصور معين مما هو موجود بالفعل ، وعلى ذلك فان موضوعه لا يعتبر كليا فى صفة الوجود التى له ، أو فى كونه حقيقيا بل يعتبر معينا مقيداً بشرط ما آخر جزئى .

فالفلسفة الأولى أى العلم الذى يحاول أن يكتشف العلل والأسباب القصوى لصفة الأشياء على العموم لا يمكن أن يكون عين أى علم من العلوم الجزئية . ونفس هذا الاعتبار يشرح لنا ما معنى فلسفة أولى ، وما هى الفلسفة الأولى ، تلك الفلسفة التى تفسر لنا مبادىء العلوم المختلفة وتدافع عنها بجدل ضداً لهؤلاء الذين يناقضونها .

إنه ليس من خصائص المهندس ، ولا الطبائعى ، ولا غيرهما من الإخصائيين أن ينظروا فى اعتراضات على المبادىء الكلية للفكر

والتدليل مثل قانون التناقض . إنهم يسلمون عن رضى بهذه المبادىء فاذا ما هوجمت وحمل عليها فليس يمكن الدفاع عنها بالاعتبارات الطبيعية أو الهندسية .

وأيضا ليس من الواجب فى مبادىء العلوم الجزئية أن تمتحنها تلك العلوم وتدافع عنها . إنها لهى الأصول الموضوعة والمبادىء المفروضه للعلوم التى تستخدمها . وعلى ذلك فان هذه العلوم محقة فى القضاء بأنها تسلمها على أنها شرط ما للبراهين الهندسية والطبيعية والحيوية (أى الخاصة بعلم الحياة) ، فاذا ما أصبحت موضع شك فان الدفاع عنها هو من وظيفة المنطق (أو الفلسفة الأولى) فقط .

من ذلك يتبين أن الفلسفة الأولى هى العلم بما هو أيس ، أى بما هو موجود بالفعل فقط بما هو كذلك ، أى العلم بالمبادىء الكلية لهيئة وبنية بدونها لا يمكن أن يكون نظام متسق لمواضيع قابلة للعلم لكن كلمة أيس ، أو وجود ، هى : ذات معانى جمة لا معنى واحد فقط . فيوجد ثمة ضروب شتى من الوجود بقدر ما يوجد ضروب للحمل .

مثلا الجواهر مثل إناس وأفراس وأشباههما لها ضربها الخاص من الوجود ، إنها لهى أشياء ، والكيفيات : مثل الخضرة والحلاوة ذات قسط آخر من الوجود ، إنها ليست أشياء بل آثار وصفات الأشياء ، والأفعال مثل البناء والقتل لها شأن آخر من الوجود ، فهى ليست أشياء ولا آثار أشياء[1] والضرب الخاص بها من

(١) تفرقته بين الفعل والكيف يذكرنا بتفرقة النحاة بين المعنى المصدرى والمعنى الحاصل بالمصدر . الأول : سيال . والثانى : قار . المعرب

الوجود هو أنها عمليات تكون أو تفسد الأشياء .

والفلسفة الأولى تعنى بالصفة العامة لضروب وشئون الوجود هذه . بيد أنها تعنى على الوجه الأخص بهذا الضرب من الوجود الذى يخص الجواهر ، لأن هذا هو الضرب الأولى لكل شئون الوجود ، يجب علينا أن ندخل الايماء إليه فى محاولتنا أن نقول : أىّ ضرب وشأن من الوجود تأخذ الأفعال والكيفيات ؟ وكذلك يكون الأمر والخطب إذا أخذ بياننا من أى مقولة من المقولات الأخرى ، من ثم كان المطلب الرئيسى والخاص بالفلسفة الأولى هو أن يحلل مفهوم الجوهر ، وأن يبدى معربا عن علل وجود الجواهر

وبعد : فيجب علينا أن نلاحظ أن لفظ الجوهر نفسه يتناول معنيين : فحينما نتكلم عن الجوهر بأنه أحد المقولات ، فاننا نستعمله فى معنى ثانوى ، ولكننا قد نقصد من الجواهر ، أمثال الإنسان ، والحصان ، وسائر الأنواع الحقيقية التى نجدها فى عالم الطبيعة والكيان ، والتى نجتهد أن نستحضرها فى تقسيم ما علمى . وفى هذا المعنى للفظ جواهر يوجد نوع خاص بمحمولات كالذى نثبته لأفلاطون عند ما نقول إنه إنسان ، أو الذى نوجبه « لبوسيفائس » عند ما نقول انه حصان لكن فى المعنى الأولى يقصد من الجوهر شىء ما شخصى مطلقا ، أى هذا الإنسان ، أو ذاك الحصان .

وعلى ذلك فاننا قد نحد الجواهر الأولى من نقطة مرتأى منطقى بقولنا : إنها التى يمكن فيها فقط أن تكون موضوعات لحمل ،

ولا يمكن أن تكون محمولات ، وأيضا من خصائص الجواهر انه حينما يبقى بالعدد جوهر واحد يكون عرضة لتعينات متناقضة وهو واحد بعينه . مثل سقراط فانه على الترتيب هو شاب وشيخ ، وهذا لا يصدق على الكيفيات والأفعال وسائر المقولات ، فان نفس هذا اللون الواحد بعينه لا يمكن فيه أن يكون أولا أبيض ، ثم يصير أسود ، ونفس هذا الفعل الواحد بعينه لا يمكن أن يكون أولا رديئا ، ثم يصير جيدا .

وعلى ذلك نقول : إن الجواهر الشخصية هى العوامل الثابتة والقارة فى عالم التغير أى أنها ذات الوجود المعرض للتغيرات ، تستمر العمليات فيها انها تمر بسلم التغيرات من يوم الميلاد إلى ميقات الفساد ، عمليات تحدث فيما بينها ، تتبادل الفعل والانفعال ، إنها تتقلب فى كيفياتها وأقدارها . ولكن ما دام يوجد جوهر واحد فانه يبقى واحدا بالعدد ، ويستمر هو هذا الجوهر بعينه فى عين هذه التغيرات كلها . إن وجودها هو الشرط الأولى والأساس الأصلى لوجود العالم حيث أنها حوامل الكيفيات ، وحدود كل النسب والفواعل والمنفعلات فى كل تبادل فعلى .

والنقطة ذات البال هى : أن أرسطو يبتدىء بحثه فى كيان ما هو أيس ، أى موجود بالفعل ، والعلل التى بها يحدث بالابتدا من وجود الأشياء الشخصية الخاصة بالترتيب الطبيعى والمحسوس بالحواس . وعن أى شىء مثل هذا قد نلقى إليك سؤالين .

أولا : إلى كم مقوم ذاتى وعامل أساسى يمكن أن يحلل منطقيا؟

وثانيا : كيف يتأتى له أن يبدى الصفة التى يبدى تحليلنا أنه يحوزها؟

أما الجواب على هذين المطلبين فسوف يظهر من النظر فى تقابل أمرين متقابلين يلوحان فى كل فلسفة أرسطو ، وهو التقابل الذى بين الهيولى والصورة ، أو الكائن بين ما بالقوة وما بالفعل ، والمتبين من تلخيص تعليمه عن العلل الأربع أو المعانى الأربعة للفظ العلة .

الهيولى والصورة :

إذا نظرنا فى أى شىء شخصى تام التكوين ، سواء أكان صنع الإنسان مثل طاس من النحاس ، أو كان صنع يد الطبيعة كشجرة من البلوط ، أو حصان فإننا فى الحال نرى أن الطاس كسائر الأدوات النحاسية المصنوعة من ذلك المعدن مثل شمعدان ، أو آنية فحم له مادته النحاسية المشتركة . ثم هو يتميز بشكل خاص يمتاز به عنها يعده لصلاحية استعمال خاصة .

وكذلك فانظر فى العالم النباتى أو الكيميائى ينبئك أن الأنسجة المكونة للبلوط أو العناصر الكيميائية التى منها تتألف هذه الأنسجة هى من جنس الرماد ، إلا أنه يختلف عنه فى النظم والتأليف الخاص ، وعلى مثل هذا فقس المقارنة بين مثل الحصان ، والثور مثلا . فمن ذلك نرى أنه يمكننا فى أى شىء شخصى أن نميز بين مكونين (مقومين) اثنين .

أولها : المادة التى منها يتكون هذا الشيء ، والتى تكون مساوية فى الجنس للمادة التى منها تتكون أشياء أخرى مختلفة الأنواع جد الاختلاف .

وثانيهما : القانون التأليفى للتكوين والتصوير ، أوالترتيب الذى يختص به ذلك الشيء الذى ننظر فيه ، وفى الشيء الشخصى الفعلى يتحدهذان الأصلان ويتصلان بلاتعدد ولا انفصال ، فليس مثلهما مثل الإيدروجين ، والاوكسيجين اللذين يقول عنهما الكيميائى : بانهما يوجدان جنبالجنب فى نقطة الماء ويتجاوران ويتضامان .

إن قانون الترتيب والتنظيم ظاهر باد فى النحاس وبواسطته كما هوكذلك لائح واضح فى الأنسجة المختلفة الموجودة فى جسم الحى .

يعبرعن ذلك أرسطو بقوله : إنه ليتسنى لنا أن نميز بين وجهين فى كل شخص وهما هيولاه وصورته ، فالشخص هو الهيولى من حيث هى مرتبة منظمة حسب مبدأ معين وهوالصورة ، ويضرب المثل للأول من هذين الوجهين وهو الهيولى باخشاب الفلك . مختارا لهذا المثل كى يتبين أن المقصد من اللفظ هوعين مانقصده من لفظ خفل أو ساذج (خام)

وقديرجع هذا التمثيل إلى ذكرى تخيل « فيثاغورى » عتيق نظر إلى العالم على أنه فلك .

وأما كلمة صورة فهى مثل الكلمة التى لأفلاطون وان استعمالاتها الفلسفية ذات اتصال تام بمعناها التعليمى (الشكل المنتظم) وهوأيضا اصطلاح « فيثاغورى » لم يزل باقياً ، فى عبارات

ثابتة لم يعتورها التغير » باقليدس » .

ولقد وسع أرسطو (بذريعة القياس والتشبيه) ذلك التحليل إلى الهيولى والصورة ، وتجاوز به وراء تخوم الجواهر الشخصية إلى أن تناول كل شيء يتسنى لنا فيه أن نميز بين شيء غير معين نسبيا وبين قانون ، أو نحو من الترتيب والتنظيم يفيده تعينا .

مثلا : إذا نظرت إلى الخلق المكون أو الثابت نسبيا لإنسان بلغ سن الرشد ، فإنه يمكنك أن تنظر إلى هذا الخلق على أنه ناتج من المادة الخاصة بميول وطبائع أخذت تطورا خاصا فى سمت خطوط محدودة حسب نوع التربية التى تعرض لها العقل فى الدور التكوينى لنموه .

وعلى ذلك يمكننا أن نقول عن الطبيعة الأصلية بأنها الهيولى أو الماده الخفل التى منها يتكون الخلق ، وان المطلب العملى للتربية هو أن نتدبر لنكتشف نظاماً خاصا بالتربية يطبع على هذه الهيولى بالدقة الصورة المطلوبه إذا أريد بالإنسان البالغ النمو أن يكون رجلا خيراً فاضلا لمدينة (دولة) فاضلة ، وبما أن خلق الإنسان نفسه ليس هو جوهر ما ، بل أمرا مركباً من ملكات أو طرائق ثابتة لفعل ناجم عن إيعازات ودوافع آتية من العالم الذى يحيط به ، فهو مثال جيد لتوسيع التحليل إلى الهيولى والصورة وراء مقولة الجوهر .

إذن يتسنى لنا أن نرى أن الهيولى بالمعنى الأرسطى يجب أن تكون أعم وأوسع من ذلك الأمر الذى يختص بالجسم ، فالعامل (أى الجزئى) اللامتعين نسبيا والذى يقبل تعينا أتم وأكمل على يد قانون بنائى تأليفى ، أو على يد صورة هو الهيولى سواء أكان جسمانيا

أو لم يكن . ويصبح هذا أشد جلاء ووضوحا على الوجه الأخص فى الشرح المابعد الطبيعى للعملية المنطقية الخاصة بالحد المتكون من الجنس والفصل . حينما نحد نوعا حقيقيا نذكر أولا النوع الأعلى الأوسع الذى ذلك النـــوع الحقيقى نوع فرعى منه ، ثم نضيف المميزات الخاصة به التى تميزه عن الأنواع الأخرى الفرعية التابعة لذلك الجنس عينه ، فيكون إذن موقف الجنس إزاء الفصل كموقف الهيولى إزاء الصورة التى تعيرها بناءها .

وينبغى أن نلاحظ أيضا أن الهيولى والصورة بالدقة أمران متضايفان .

فالهيولى : سميت هكذا بالنسبة إلى الصورة التى تعطيها تعينا ما آخر ، اذا استعملت اللفظتان بمعناهما الدقيق فيما يختص بشىء ما شخصى ، فالصورة يقصد منها التعين الأقصى الذى يستحوذ الشىء على صفته التامة ، والهيولى يراد منها ذلك الأمر الذى لم يزل فى انتظار لأن يقبل هذا التعين الأخير . مثلا : فلتنظر إلى أكرة من النحاس ترى أن الشكل الكرى هو الذى يقال عنه بأنه صورتها ، والنحاس هو هيولاه ، وانظر فى أمر الجسم الإنسانى تجد أن الهيولى هى الأنسجة المختلفة والعضلات والعظام والجلد وما إلى ذلك ، لكن كل شىء شىء من هذه الأشياء التى عدت بأنها مختصة بهيولى الاكرة ، أو بهيولى الجسم الانسانى له عند أرسطو تطور ماوراءها ، فالنحاس ليس هو اسطقسا محضا بل هو مؤلف من اسطقسات ويصدق مثل هذا صدقا أكثر على أنسجة الجسم الحى المحكمة الصنع بأجود

حكام ، وعلى ذلك فان ما يدعى هيولى بالقياس إلى الأكرة أو الجسم الحى هو هيولى عينتها من قبل الصورة ، إذا نظرنا إليها بالنسبة إلى مكوناتها .

وما يسمى باسطقسات انبذقلس أعنى الماء والتراب والهواء والنار هى هيولى المركبات الكيمائية طرا ، وصورة كل مركب مركب هو قانونه النوعى المختص بتركيبه .

والهيولى المباشرة أو القريبة لأنسجة جسم الحيوان هى طبق علم الحياة الأرسطى ، دم الأم الفاضل عن حاجتها والذى تتكون منه الأنسجة المختلفة فى المولود ، وهيولى هذا الدم هى فى دورها تلك الجواهر المختلفة التى تجلب وتؤخذ إلى جسم الأم وتوجد فيه كطعام ، ثم تستحيل إلى دم بعملية التشبيه . وهيولى هذه الجواهر (الأغذية) هى : النار ، والهواء ، والماء ، والتراب ، التى منها تألفت وتكونت . وعلى ذلك ففى كل مرتبة من مراتب الصنع أو النمو صورة ما جديدة تضاف أو تتطور فى هيولية ما ، وهذه هى نفسها مؤلف ما من هيولى وصـــورة بالنسبة إلى الاجرائية التى بها نفسها ابتدأت .

مثل هذا النظر إذا استقصى تمام الاستقصاء يقود إلى أن الأشياء فى النهاية تنحل إلى هيولى بسيطة قصوى لجميعها هيولى واحدة عامة لجميع أنحاء العالم وعارية جرداء بالمرة عن كل هيئة وصورة ، فكل صورة وهيئة معينة لأى نوع يجب أن تكون آتية من مصـدر

خارجي طبقا للتفكير الصحيح الصادق[1] حيث ان الهيولى هي عديمة الهيئة والبناء ، فلا يمكن أن تعتبر معطية لنفسها أنواع التعينات الخاصة النوعية على ما برهن عليه في زماننا تهافت الفلسفة التأليفية ، ويتحاشى أرسطو عن الصعوبة بارتياء أن الهيولى المحضة هي نتيجة تحليل فكرنا . وفي الواقع ان الصورة الفجة التي فيها تلفى الهيولى هي صورة الاسطقسات ، وحيث أن تحول الاسطقسات وانقلابها بعضها إلى بعض (ذلك الانقلاب المسمى كونا وفساداً) هو عقيدة في طبيعيات أرسطو لا مناص عنها ، فلا يتسنى لنا أن نتجافى عن اعتبار التراب ، والماء ، والنار ، والهواء أنها أنفسها تعينات بصورة نوعية خاصة لهيولى لم تزل أبسط ، وإن كانت هذه الهيولى المعروفة بالهيولى الأولى لا تلفى أبداً موجودة في بساطتها .

القوة والفعل :

إلى هذه اللحظة كنا ننظر في تحليل الشيء الشخصي تحليلا سكونيا (أي من حيث هو في حالة سكون واستقرار) . ولقد وصلنا إلى ذاك التقابل الذي بين الهيولى والصورة بالتباين الذي بين حالة شيء عديمة الكمال والتمام ، وحالته التامة الكاملة ، من بعد ذلك سوف

---

(١) هذا طبق ما يقوله علماء الكلام : من ان العالم ليس له من ذاته الوجود لأنه مجرد امكان محض . ووفاق ما يقوله الفيلسوف كنت الألماني من احتياج الإثبات إلى ليات تأتيها لا من ذاتها بل من القوة الناقدة . المعرب .

ندرس نفس هذا التباين من وجهة الحركة والسيولة ، بإيماض خاص إلى إجرائية الصنع أو النمو التى بها يصير اللامتعين نسبيا أو اللامتكمل معينا ومكملا تاما ، إذن يصير التباين الذى بين الهيولى والصورة إلى تباين بين القوة والفعل ؛ وما يقصد من هذا التقابل يتسنى لنا أن نراه جيدا فى حالة نماء العضوية الحية . أنظر إلى أجنة حيوانين ، أو إلى حبوب نبتتين .

إن العالم النباتى والفيزيولوجى قد لا يكون قديرا على العلم عن يقين بالأنواع التى تتبعها النطف والجراثيم المعروضة عليه ، وكذلك التحليل الكيميائى قد يعجز عن التيقن منها واكتناه كنهها وأيضا يعسر التمييز فى مرتبة متأخرة من التطور بين جنين حيوان فقرى ، وجنين حيوان آخر . إلا أننا على يقين من أن إحدى هاتين الحبتين المتعسرتى التميز فى البدء ستنمو إلى شجرة بلوط ، والأخرى إلى شجرة الدردار ، وأن أحد هذين الجنينين ينمو إلى الشمبانزى ، والآخر إلى الإنسان . فكيفما كان الحال والشان فى أمر النطف والجراثيم ، ومهما كان من التعسر والتعذر فلا يمنع ذلك من الاعتقاد والقول عنها بأنها ذوات ميول كامنة أو إمكانات تطور متوقع فيها لا محالة . من ثم قد نقول عن جرثومة معطاة إنها بالقوة بلوطة ، وإن لم تكن كذلك بالفعل بعد . ومعناة ذلك ليس أنها فقط إذا تركت وشأنها تصير يوما ما بلوطة ، بل وانها بلا تدخل لا يمكن أن تنمو إلى شجرة دردار أو شجرة زان .

وعلى ذلك يمكننا أن ننظر فى كل إجرائيات الايجاد أو اليطور

بأنها إجرائيات فيها يصير ماتحوزه فى البدء من الميل إلى النمو فى سمت خطوط معينة ، أو إلى الصنع فى صور مخصوصة ممهرا فعلا بالصفة التى إليها الميل . فبذرة البلوط أو جوزة البلوط تصير على ممر الزمن وتعاقب الملوين ، وتتابع الجديدين شجرة بلوط بالفعل ، والطفل يصير إنسانا بالفعل ، والنحاس آنية بالفعل .

والتربية الحقة تخرج الاستعدادات الخاصة الكامنة فى الطالب إلى دربة وحنكة بالفعل ، من ثم قد يعبر أيضا عن التباين الذى بين الهيولى والصورة بقولنا : إن الهيولى هى المحل الدائر الباقى أو المركز الرئيسى الثابت الذى فيه يحدث تطور الصورة ، او ان الشخص حينما يعين نهائيا بالصورة يكون هو الفعلية التى كانت الهيولى هى إياها بالقوة قبل التطور .

إجرائية الحمل ، والولادة والنمو إلى البلوغ والكمال فى الطبيعة أو إيجاد صناع لصنف ما مكمل ، صناع وظيفتهم محاكاة الطبيعة قد يقال عنها (أى عن هذه الاجرائيات بأنها تقدم متواصل نحو الإخراج بالفعل للصورة ، أو قانون التنظيم فى هيولية حائزة للقوة الكامنة المائلة إلى التطور فى سمت تلك الخطوط الخاصة .

عند ما يتكلم أرسطو متحريا الضبط والتدقيق فانه يميز بين الاجرائية التى بها الصورة تتحقق تلك التى يدعوها قوة (أى قوة فاعلة) وبين مظهر الصورة المتحققة ذلك الذى يسميه الكمال[1] ،

---

(١) يلوح من الكلام ان المؤلف يريد ان يبدى استغرابه فى معنيين متباينين مستشكلا ذلك ولكن لا وجه لاستشكاله هذا حيث أن =

وعلى كل حال يستعمل غالبا لفظة قوة بتسامح وتجوز فى التعبير عن المظهر الفعلى للصورة نفسها وفى هذا يتبعه علماء الكلام الذين يردون القوة إلى الفعل المحض .

بقى علينا شىء واحد من مقتضيات هذه الاجرائية يجب علينا أن نلاحظه وهو : فى أنها ليست عملية ذات استعدادات وقابليات غير محققة مجردة عن كل غاية ، بل هى على الدوام ذات غاية فى المعنى البسيط لآخر مرتبة ، فجوزة البلوط تنمو إلى شجيرة ، والشجيرة إلى شجرة بلوط ، لكن الشجيرة لا تنسب إلى البلوط ، كما أن البلوط لا ينسب إلى الشجيرة . البلوط لا ينمو إلى شىء ما آخر . فعملية الخروج من القوة إلى الفعل فى هذه الحالة الخاصة تقف عند نهاية ببروز البلوط الكاملة البالغة

فى العالم العضوى تستعرف الغاية أو الحالة النهائية من هذه الحقيقة . وهى : ان العضوية لها قوة الايجاد اخلف لها شبيه بها ، وميل العملية العضوية هذا لأن تبلغ درجة النهاية فى مرتبة قصوى لبلوغ تام هو مفتاح النظر فى مطلب الغاية الصادقة للحياة من كتاب الأخلاق لأرسطو .

العلل الأربع :

إن التصور عن العالم المنطوى فى التقابل الذى بين الهيولى والصورة ، وما بالقوة وما بالفعل يجد أتم عبارة له فى تعليم أرسطو

= اللغات ملؤها الالفاظ المشتركة خصوصا وان أكثر الالفاظ اعتورها هذا الاشتراك . المعرب .

عن العلل الأربع ، أو شرائط إيجاد الأشياء ، وينظر أرسطو إلى هذا التعليم بأنه الحل الأخير للمطلب الذى ما فتىء هو المطلب الرئيسى للفلسفة الإغريقية وهو هذا : (ما هى علل التنظيم العالمى ؟) وإنه ليعتبر كل الفلسفات الأولى محاولات غير كافية ومعالجات ناقصة لصوغ الجواب عن هذا المطلب الذى لا يعرف بحقيقته وتماميته إلا فى مذهبه . من ثم تستدعى التعليم الإبانة عنه بايضاح وإسهاب وإفصاح وإطناب .

وقد يقترب إليه بالابتداء من المعنى اللفظى لكلمتى اللم واللمى اللتين يستعملهما أرسطو ليؤديا مفهوم العلية .

فاللمى هو حقيقة صفة مستعملة كاسم ويقصد منها ذلك الأمر الذى تتوقف عليه توقفا شرعيا المسئولية الشرعية لحالة حوادث معطاة .

وكذلك اللم أى الاسم يقصد منه سند الخير والشر أو المسئولية الشرعية لفعل ما ، فحينما نسأل من المسئول عن وجود كذا ، وكذا ، من حالات أشياء ؟ أى ما هو السبب فيه ؟ يوجد ثمة أربعة أجوبة جزئية قد تعطى ، وكل واحد منها بإزاء أحد العلل . وأما الجواب التام فانه يقتضى سردها جميعا . فلنا أن نذكر

أولا : العلة المادية للشىء ؛

وثانيا : الناموس والقانون الذى على وفاقه نما الشىء أو تطور ، أعنى العلة الصورية ،

وثالثا : الفاعل الذى بسبب دفعه الابتدائى يبتدأ التطور

(نقطة بدء العملية) أو العلة الفاعلية على ما دعاها المتأخرون من الأرسطيين

ورابعا : النتيجة المتممة للعملية كلها التى هى حاضرة فى أمر الصناعة البشرية على أنها فكرة ما سبق أن تصورت فكرة معينة لكل منهج الصانع فى تدبير مادته والتصرف بها وحاضرة فى أمر التطور العضوى فى الطبيعة على أنها سارية فى مراتب النمو المتعاقبة ومحددة لها . أعنى العلة الغائية . وإذا اختلفت إحدى هذه العلل فالحالة الحاصلة الأشياء كذلك تختلف .

من ثم يجب أن تخصص كل الأربعة بتتمتها فى التعليل عنها ، يمكن أن تعطى إيضاحات بينة من الانتاج الصناعى الذى تبديه الصناعة البشرية . لكن يلوح جليا أن السبب الأصلى فى التحليل والتبيين هو بالحرى ذلك التبصر والتأمل الذى فى العملية الحيوية للتناسل والنمو .

لنفرض أننا نسال ماذا يلزم ليكون الآن هناك شجرة بلوط فى بقعة ما . فبين جلى أنه يجب أن يكون هناك أولا بذرة منها تنمو البلوط ، وأنه يجب أن يكون فى هذه البذرة الميول الكامنة نحو التطور تلك الميول التى يتميز بها البلوط ، فهذا هو العلة المادية للبلوطة ويجب ثانيا أن تتبع هذه البذرة قانونا للنمو مقررا ، وأن يكون فيها الميل نحو النمو فى الطريق الممتاز للبلوط ، ونحو تطور بنية البلوط ، لا نحو بنية بسيط ما أو رماد ما ، فهذا هو الصورة أو العلة الصورية .

ويجب ثالثا حيث أن هذه البذرة لا تاتى من لا مكان بالطبع أنها نمت عن أم بلوطية ، فهذه الأم وفاعليتها لحمل الجوزة أو البذرة هى على ذلك تكون العلة الفاعلة للبلوطة الحاضرة ، ويجب رابعا أن يكون هناك مرتبة نهائية غائية ينسب الهياكل عملية النمو وفيها لم تعد البذرة أو الشجيرة كائنة بعد بل هى بالفعل الآن بلوطة بالغة حاملة لجوزات جديدة . هذا هو غاية العملية . إن الإنسان لا يكون مخطئا إن أقدم على القول بان فكرة أرسطو الحيوية (أى فكرته عن علم الحياة) قادته لأن يتصور هذه الغاية فى حالة التناسل على أنها غرض ما غير متحرى بخلاف حالة الصناعة التى فيها تكون فكرة الصانع عن النتيجة التى يجب أن يحصل عليها بعملة هى الغرض المحرك المتوخى وفى كلا الطبيعة والصناعة تميل الصورة (أو العلة الفاعلة) والغاية إلى أن يتحدا مكونين شيئا واحدا ، مثلا : فى الطبيعة تجد أن الإنسان يلد إنسانا . والكائنات العضوية تلد كائنات عضوية أخرى من نوعها .

وباللغة الاصطلاحية عن نظرية أرسطو للعلية تنتج العلة الفاعلة كفاية لفعلها كائنا آخر محرزا لمثل صورتها ، وإن كانت هذه الصورة إنما تتحقق فى مادة أخرى مغايرة بالعدد لمادة أصلها ، وعلى ذلك فان العلة الفاعلية (أعنى الأم أو الوالدين) هى صورة ما متحققة فى مادة ، والغاية هى نفس الصورة متحققة فى مادة أخرى . وكذلك فى منتجات الصناعة يكون المصدر الصادق للعملية هو الصورة التى تحققها يكون الغاية أو العلة الغائية ، وفقط يختلف عنها فى هذا وهو أن

الصورة من حيث هى علة فاعلة لا توجد فى مادة بل توجد على منهاج فكرة وبصفة معنى ، أو تمثل فى عقل الصانع فلا يقال فى الصناعة إن المنزل ينتج منزلا آخر ، لكن بما أن المنزل يوجد فى فكرة ومعنى يتمثل فى عقل البناء فبهذا ينتج منزلا آخر مماثلا لما تمثل أولا بفكرة ومعنى . بيد أنه متحقق فى اللبن والحجر . وعلى ذلك فان التقابل الأقصى هو الكائن بين العلة من حيث هى مادة وهى المحل المعطل الخاوى والمنفعل للتغير والتطور وبين العلة الصورية التى (فى المعنى الذى شرحناه الآن) هى واحدة مع كلا الفاعل أو نقطة البدء والغاية أو مرمى التطور .

بالطبع يرى أن الاشخاص (الفواعل) الحاملة للصور هى اشياء لامناص عنها فى النظرية من ثم تكون فكرة الفاعلية هى اساسية للعلاقة العلية انها لهى علاقة بين الاشياء لا بين الحوادث ، وليس عند أرسطو معنى لكلمة علة يشاكل تصور « ستيوارت ميل » للعلة من حيث هى حادث ما هو بشير مطرد بحادث آخر .

وهنا قد يشار إلى ملاحظتين فى هذا الصدد :

الأولى أن أهمية مفهوم الغاية تعطى فلسفة أرسطو صبغة فلسفة العلة الغائية (التى هى من جهة أخرى الروح السارية فى عموم مذهبه ، والتى تشام من جميع أنحاء تعليمه إنه ينبئنا بان الطبيعة والله لا يفعلان شيئا عاطلا عن الغاية[1] .

---

(١) فى الاصطلاح القديم ان الطبيعة لاتفعل عبثا ، والله لايفعل إلا بحكمة . المعرب .

لكن قد نكون غالطين إذا فهمنا من ذلك أن الله والطبيعة يفعلان فى كل مكان لغرض متحرى ، والمعنى هو بالحرى أن كل عملية طبيعية ذات مرتبة أخيرة ففيها الصورة (التى كانت حاضرة باديء بدء فى الفاعل أو مصدر التغير محقق بتتمتها فى المادة التى فيها أنشا الفاعل عملية التغيير . والشيء العادى الطبيعى هو أن الحيوانات تخلق نوعها (لذا لم يكن لها من غرض غير نفسها) وإذا كان النسل أو الخلف ناقصا أو منحرفا كما فى المواليد التى هى فلتات الطبيعة يكون هذا استثناء راجعا إلى وجود اتفاق عرضى فى المادة وجود لنقائص عاقت عن أخذ سير التطور مجراه ، ويجب أن يعتبر ضدا لمجرى الطبيعة العادى . ومن ذلك كان تولد النغل (وهو مختلط النبت) أمرا استثنائيا وضدا للطبيعة . وهذا ما يبدو فى عقم النغلات وهو نوع أقل فلتا وأكثر شذوذا حتى أن الأناث لكونها تطورات منبثة هى نوع من انحراف عن المبدأ لم يزل أقل .

الملاحظة الثانية : أنه قد يذكر ههنا أن لأرسطو تقسيما للعلل الفاعلة تحت هذه العناوين الثلاثة وهى : الطبيعة ، والإرادة ، والصدفة . والفرق بين الطبيعة والإرادة من حيث هما من العلل الفاعلة قد سبق تبيانه فى الفعل الطبيعى الذى للعلة الطبيعية مثل التناسل الجنسى أو عملية التغذية والهضم أو الكون والفساد الذى يعتقد به أرسطو وهو انقلاب اسطقس إلى آخر توجد من قبل الصورة التى يمنحها الفاعل المادة فى الفاعل نفسه على أنها صورته ، فالبلوطة تصدر من أم بلوطية ، والغذاء المتحول إلى نسيج عضوى راجع إلى

فاعلية نسيج عضوى كائن من قبل . أما فى الإرادة (وعمل العقل البشرى أو الصناعة) فيجب فى الصورة التى يجب أن تحل المادة الصناعية أن توجد فى الفاعل لا على أنها صورته المقومة له ، بل على أنها تمثل بصفة مقصد تفكر فيه وهذا أمر بديهى ، فالإنسان الذى يبنى منزلا ليس هو نفسه منزلا ، والصورة المنزلية المقومة للمنزل مباينة حق المباينة للصورة الإنسانية المقومة للانسان لكنها أى تلك الصورة المنزلية تمثلت فى التفكير بالبناء من قبل ما تبرز فى مادة المنزل الخارجية بالفعل .

قد تضاف كلمة بيانية عن النوع الثالث للعلة الفاعلة أى العلة بالصدفة . وذلك أن هذا النوع يقع فى الحالات التى هى استثنائيات شاردة عن المجرى العام للطبيعة ، اعنى الاتفاقيات الغريبة . إنها هى التى قد تدعى بالقصدية الكاذبة فحينما يحدث فى الأمور البشرية شىء ما فى طريقة تساعد على تنجيز نتيجة ما لكنه لم يجلب من حيث هو كافل بالنتيجة فاننا ندعوه اتفاقا غريبا . مثال ذلك : إن انسانا قد يتفق له أن يسير فى طريق غير مأمون ، وبينما هو سائر إذا قطاع الطريق وقد تلاقوا به وألزموه بأن يفتدى نفسه أمامهم ، ثم لا يلبث أن يظهر لفيف من أعز أصدقائه بغتة دون سابقة علم منهم بهذا الأمر ، ويقومون له بوسائل الفداء ، وقد يتفق أن ترتب أمور لتكون أسبابا فى حوادث ما ولا تقع فى الوقت المناسب ، ثم انها من بعد ذلك

قد تقع فى مثل ذلك الوقت دون ترتيب ولا تدبير سابق ، بل يكون ذلك صدفة .

إن القول عن الصدفة كان ذا أهمية فى علم الأخلاق بالقرون الوسطى ، ففى العصور التى تقدمت الخرافة البروتستانتية القائلة بأن النجاح العالمى هو برهان على القرب من الله لكونه دليل العناية الالهية ـ علل العوز إلى تشابه بين احتياجات الناس وسعادتهم بهذه الفكرة ، وهى : أن توزيع الخيرات العالمية هو غالبا فعل البخت أو الصدفة بالمعنى الأرسطى . أعنى أنها راجعة إلى اتفاقات خاصة تشبه قصدا متحرى لكنها فى الحقيقة على خلاف ذلك .

الحركة :

لقد رأينا أن العلية سواء الطبيعية والصناعية تقتضى الإنتاج فى مادة ما لصورة ما تحت تأثير فاعل ما ماهى ماهية الاجرائية التى شادها الفاعل فى المادة والتى بلغت ذروتها فى الصورة ؟ يجيب أرسطو عن هذا بأنها الحركة .

فتأثير الفاعل فى المادة هو أن ينشىء فيها حركة تنتهى بلبسها صورة ما مقررة . والنقطة الخطيرة ذات البال التى يجب أن تلاحظ هينا هى أن أرسطو يعتبر هذه الحركة واقعة جملة فى المادة التى يلزمها حتما أن تلبس الصورة وليس من الأمر الضرورى أن يكون الفاعل نفسه ذا حركة فى نفسه ، بل اللازم فقط هو أن يسبب حركة فى

شيء آخر. مثلا : فى كل أحوال الفعل الإرادى تكون العلة الفاعلة التصوى هى الفكرة عن النتيجة التى يرغب الحصول عليها ، وبالطبع هذه الفكرة لاتتحرك . بيدأنه بوجودها فى العقل تجعل شيئا آخر وهو أعضاء الجسم فى حركة . وهذا الضرب من التصور عن العلة الفاعلة التى لاتتحرك بنفسها والتى بمجرد وجودها تسبب حركة فى طريق ما لأجله توجد ، هو ذو خطورة عظمى فى الحكمة الإلهية الأرسطية . وحيث أن الحركة التى هى الخروج من القوة إلى الفعل أو التى بها ينجز هـــذا الخروج تقع جملة فى داخل المادة التى هى الحقيقة الانفعالية والطبيعة المنفعلة فيلزم أن أرسطو لايشغل نفسه بأى مطلب عن الطريقة التى فيها يمكن أن تنتقل الحركة من جسم إلى آخر ذلك المطلب الذى أثير كثيرا فى الأيام الأولى للتفسير الميكانيكى (تفسير الحركة القسرية) الحديث عن الاجرائيات الطبيعية وطريقه تصور أرسطو عن الطبيعة خلو من كل تصور ميكانيكى (قسرى) وتقرب مما سمى الآن بعزوسمات حيوية أو شبه حيوية إلى اللاعضوى .

كما أن فى علية الصناعة يسبب مجرد وجود الصورة فى عقل الصانع تلك الصورة المزمعة التذود (التجسم) فى مادة ما ، ويجلب ويوجه عملية الصناعة كذلك فى طريقة مشابهة لهذه يفكر عن وجود لعلة ما فاعله فى الطبيعة لذلك الذى فيه تعمل . وعليه تؤثر بأنه نفسه المكوّن لفاعلية العلة وكما صاغ النظرية لوتز (الفيلسوف الألمانى) إن

الأشياء يلحظ وجود بعضها البعض فى العالم ، أو نقول ان العلة الفاعلة والذى فيه تدرب فاعليتها هما على وفاق وفى اتصال ونسبة مباشرة . فالمادة هى حساسة بوجود العلة الفاعلة وإجابة على هذه الحساسية تبرز تعينات متعاقبة وتوسع ميولها الكامنة فى خطوط مقررة .

وليعلم أن لفظ حركة ذات معنى أوسع عند أرسطو مما لها عندنا أنه يحصر تحت لفظ واحد مشترك كل الاجرائيات التى بها تصير الأشياء على ماهى عليه أو تمسك عما كانت عليه لذا ينوع الحركة إلى أنواعها التالية .

(١) الحركة فى الجوهر التى يسميها الكون والفساد : وهى خروج[1] الشىء من العـــدم إلى الوجود وبالعكس مسميا العدم فسادوا والوجود كونا .

(٢) الاستحالة : وهى الحركة فى الكيف مثل التبيض والتسود والتعلم وما إلى ذلك .

(٣) وثالثا الحركة فى الكم : مثل النمو والذبول والتخلخل والتكاثف وما ينحو هذا النحو .

(٤) ورابعا الحركة فى المكان المسماة بالنقلة : وهذه تنقسم إلى

---

(١) اعلم أن تسمية الكون والفساد حركة مجاز عند القدماء لأن الحركة عندهم تنقل تدريجى . أما الكون والفساد فهو انتقال دفعى ، وذلك مثل تسمية الحدس فكرا وبين القدماء خلاف حول الحركة الجوهرية ومن القائلين بها الاشراقيون وطائفة الصدرية . المعرب .

المستقيمة العنصرية كهبوط الثقيل وصعود الخفيف ، والمستديرة الفلكية وهى التى تكون فى مدار مستدير حول محور أو قطب .

وهذا النوع الرابع وهو الحركة فى المكان هو أهمها كلها حيث أن حدوثه يقع فى كل نحو من أنحاء الحركة المذكورة ، وإن كان أرسطو لا يتبع النظر الميكانكى (القسرى) البحث من أن الاجرائيات والحركات الأخرى هى ظاهرية فقط ، وان الحركة فى الكيف على مايجب أن نقول إن هى إلا لباس تنكر تلبسه الحركة الميكانكية لحواسنا

أزلية الحركة :

إن العلة الفاعلية التى سلف لنا إيضاحها وشرحها ليلزم عن تصورها جملة من النتائج غاية فى الخطورة ، فأرسطو لا يوافق على انظار القائل بالنشوء التى قبلها لفيف من سلفه ، فحسب نظره عن التكوين العضوى (الذى يقتضى أن الإنسان يلد إنسانا وحيث يوجد طفل يجب أن يكون هناك إنسان والد له) يجب فى الأنواع البيولوجية الممثلة لثغرات حقيقية فى الطبيعة وعملية تكوّن جيل فتى من جيل بالغ قد وجد من قبل ـ أن يفكر عنها بأنها موجودة أزلا بلا ابتداء ولا انتهاء ، ولا يمكن أن يكون هناك نشوء طبيعى لحيوانات نوع واحد من أشخاص نوع آخر مخالف له .

وكذلك لا يدور ببال أرسطو امكان القول بالحدوث (الحدوث الدفعى الذى يشبه الطفرة) اعنى البروز بغته لجيل أول تام الارتياش دفعة واحدة هذا الإمكان الذى يمانعه فى القول بأن مادة الشىء

يجب أن توجد من قبل على انها شرط فى إنتاج ذلك الشيء شرط لامندوحة ولا مناص عنه . كل طفل كما قلنا يجب أن يكون مسبوقا بوالد ، وهذا الوالد قد كان طفلا قبل أن يصل فى نموه إلى مرتبة البلوغ الإنسانى . لاغرو تكون الأنواع ثابتة البتة ، موجودة على الدوام أزلا وأبدا دون أن يعتورها زوال أو يعتريها فناء وبوار . ومقتضى ذلك أن كل الاجرائيات المختلفة (داخل العضوية وخارجها والتى بمنأى عنها أى عن تلك الاجرائيات لايمكن لحياة العضوية أن تثبت وتدوم) يجب أن تكون بالمثل بلا بداية ولا نهاية ، والكون أو العالم المرتب ذو العمليات الطبيعية هو بكل بت وجزم ويقين حاسم حتم أزلى والحركة باقية أبدية متصلة دون انقطاع ولا نفاد ولا انفصام ولا فساد .

ولقد اعتنق هذه النظرية الكثيرون من العلماء والحكماء والمشاؤون حتى اللاهوتيون المسيحيون أنفسهم الذين اقتفوا آثار أرسطو فانهم لم يمكنهم أن ينفصلوا عنه فى هذه النظرية . والقديس توما وإن اضطر إلى التسليم بأن العالم مبدع ومخلوق منذ آلاف من السنين هى قلائل بالقياس إلى ما مضى من الأزمان والمدد التى تقدمت زمنه ، إلا أنه يعتقد بأن صدق ذلك إنما يمكن أن يعلم فقط من طريق الوحى وكتب التنزيل ، وأما فلسفيا فان الدفاع إنما هو حول أن العالم يجب أن يكون موجودا منذ الأزل . إنه لاعتقاد عام شائع رائج السوق بين علماء الكلام . إن لفظة خلق أو إبداع إنما تدل فقط على توقف العالم مطلقا فى وجوده على الله .

فحينما نقول إن الله خلق العالم من لاشيء لا نقصد من ذلك إلا أنه صنعه لا من مادة موجودة من قبل ، وأنه يتوقف فى وجوده عليه فقط ، فالعبارة هى قضية سالبة فقط فى مضمونها ومعناها .

اللّه :

بالقول عن أزلية العالم والاجرائيات التى تنجز حياته نكون قد اقتربنا من النظرية البالغة الأوج فى الفلسفة الأولى الأرسطية ، وهى : تعليمها عن الله من حيث هو علة لكل متغير غير متغيرة بل أزلية أبدية، وعلة لحركة وإجرائية أزليتين .

كل حركة هى إجرائية داخل هيولى بها تبرز الصورة الكامنة فيها من الكمون إلى باحة الظهور الفعلى ، وأن الاجرائية تقع فقط فى وجود علة فاعلة واحدة أو مبدأ ومصدر حركة . من ثم تقتضى أزلية الاجرائيات ، الاجرائيات الطبيعية وجود مبدأ أو مبادىء أزلية للحركة ، لأنا إذا لم نسلم بوجود مبدأ أو مبادىء لحركة موجودة أبدا وغير حادثة (مبتدأة) لزمنا أن نعتقد بأن العلة العالمية راجعة إلى سلسة مصادر للحركة توجد على التعاقب ، لا إلى أول ذلك الأمر المقتضى للتسلسل . لكن مثل هذا النظر يترك الوحدة والاتصال المتصل الذى للعملية العالمية غير معللة فانه إنما يعطينا تعاقبا لعمليات متصلة وقتيا لا عملية واحدة غير منقطعة ولا منصرمة .

لاجرم نستدل من اتصال الحركة بتوقفه على مبدأ أو مبادىء ثابتة موجودة فى كل أنحاء العملية العالمية وباقية أبدا سرمدا على وجود مبدئية بهذه الصفة والصبغة .

وحينما نأتى إلى مطلب ما إذا كان هناك مبدأ حركة أقصى لكل العالم أو جملة مبادىء فيكون جواب أرسطو هو أن المحرك اللامتحرك واحد فمبدأ واحد هوكاف للغرض ، وقاعدة أن لافضل فى الطبيعة تمنعنا من افتراض كثرة . هذا هو التصوير الأرسطى عن الله والعلاقة الإلهية بالعالم . فالله هو الموجود الواحد اللامتحرك الذى لوجوده يجيب العالم عن كل العملية الخاصة بالتطور الكونى (أى بسبب وجود المبدأ الأول يخضع العالم لهذه العملية ويذعن لتأثيرها) وهو : أى ذلك الموجود الواحد المخرج الأقصى لسلسلة الصور الكامنة فى هيولى العالم إلى الظهور الفعلى ولكونه واقفا كما هو الحال والواقع (على قمة الإشراف والهيمنة) خارج كل العملية التى بمجرد وجوده يبتدئها فى الطبيعة (ويقوم فى مقام الرئاسة والقداسة) فليس هو نفسه مؤلفا من هيولى وصورة كالحال فى نتائج التطور ، إنه هو محض صورة شخصية ، أو فعل بلا تاريخ لتطور تدريجى وراءه (بلامادة) . وعلى ذلك فهو موجود مفارق محض لا بد منه لوجود العالم لكنه يتنزه عنه ويقف خارجه .

يجتهد أرسطو أن يشرح كيف يوحى (يوعز) وجوده إلى العالم أن يتحرك بمسألة الشوق على سبيل المجاز . إذ يقول : كما أننى

أتصور الخير وأتشوقه ، وبدون أن يكون هو نفسه متحركا يحرك اشتهائى وشوقى وشغفى وتوقى ، كذلكم الله يحرك العالم لكونه خيره (مطلوبه ومعشوقه) وهذا يسبب حركة مستديرة مطردة غير منصرمة حول محوره (تلك الحركة التى هى تعاقب الجديدين وتوالى الملوين) وحيث أن هذه الحركة المستديرة تسرى من الفلك الأقصى إلى الأفلاك الصغرى التى بينه وبين المركز الثابت اللامتحرك ، فان تأثير وجود الله إذن هو أمر محسوس ملموس مشعور به كلية ، يجب علينا فى الآن عينه أن نعلم أن الله وإن كان هو المحرك الأعظم للعالم لا يعتبره أرسطو هو الخالق والمبدع له ، ولا بالمعنى الذى فيه الخلق يتفق وأزلية العالم ، لأن تأثير الوجود الإلهى إنما هو فقط فى أن يقود إلى تطور الصورة فى مادة موجودة من قبل بدون الله لا يمكن أن يكون هناك صورة أو ترتيب وانتظام فى الأشياء ولا بالقدر الموجود فى تفصيل المادة إلى أربعة اسطقسات . وكذلكم المادة[1] الأولى هى أصل سابق على الأشياء وركن خطير فى عملية التكوين ، وليست أقل من الله فى أنها شرط متقدم على كل ما يحدث وأمر ضرورى فيه .

من المشهور الذائع عن أرسطو والمعروف به أن الإله الذى

---

(١) هذه المادة عند القدماء دخلت فى عبارات شتى منها الوجود العام المنبسط والظل الممدود والعقل الاول والروح الأعظم الى نحو ذلك . المعرب .

يقول به بمنأى عن أن يقضى بوظائف عناية (أى لا يتدخل فى الشئون الجزئية) كما أنه بعيد من أن يكون خالقا ، وليست فاعليته مثل تلك الفاعلية التى يقول بها أفلاطون ، وهى التى تكون لمثل راع عظيم ، وبقدر ما يعنى بالعالم لا تكون وظيفة الله بالنسبة إليه إلا أنه يحرك شوقه واشتهاءه وتوقه ، وأما سائر ما هنالك ومابعد ذلك ، فالفاعلية المتصلة المطردة التى لهذه الحياة (الإلهية) هى متجهة جملة إلى الباطن ، ويدعوها أرسطو خصوصا فاعلية الثبات وعدم الحركة ، وبا كثر دقة أنه ينبئنا بانها فاعلية فكرية منصرفة بدون انقطاع وببقاء سرمدى إلى الموضوع الوحيد الكافى للتدرب على مشاهدة الله نفسه ، وحياته هى واحدة ذات مشاهدة ذاتية أبدية ، أو هى تفكير من الفكر عن نفسه فى داخل نفسه وهى ككل دربة وحنكة فاعلية غير معوقة ، ومخالفة للذة والغبطة ، وكما أن الفاعلية متصلة كذلك المتعة بها متصلة غير منفصمة فى أجل حال لنا حينما ننسى أنفسنا ونستغرق فى محض الفاعلية الشهودية التاملية للنظر العلمى والاستحسان الجمالى (الإعجاب بالبهاء) فاننا ندخل لزمن ما إلى هذه الحياة الإلهية ونقاسم سعادة الله ونضرب بسهم فى هذه البهجة والعزة والمزة ، بيد أن هذا هو موضوع بحث يتبين فى فصل لنا عن الأخلاق .

إنها لهى صرخة بعيدة ، صرخة من هذا الضرب من التصور عن إله غير متمم بعالم . إليه هو فقط ينسب على أنه موضوع شوقه

ينسب إلى الله الذى (هو رغم ذلك) يعنى[1] حتى بسقوط عصفور وعنه كتب « هكذا الله يلذ العالم » لكن لم يزل من الواجب على علماء اللاهوت فى القرون الوسطى أن يمزجوا بين التصورين ، إذا لم يكن إله أفلاطون هو بالضبط الخالق فانه هو الأب والصانع المصور لنا كلنا جميعا ، والذى يرقب مراقبة ذات عناية العالم الذى صوره وصنعه ووقف نفسه . أجل وقف على أغراضهم غير أن أفلاطون عد فى كنيسة العصور الوسطى منكرا لبعث الأجساد

أما التوفيق والتأليف بين القول بالألوهية الأرسطية ، والقول بالوهية المسيحية الأولى فقد جرى على يد تدبيرات منطقية عويصة جدا ، بيد أن الإنسان لاينفك عن رؤية التلفيقات حتى فى القديس توما ، بل لاينفك عن أن يرى فى تعاليم ارسطو نفسه العوز العادى للتماسك والتوافق بين هوى أولى ضد لأفلاطون ورجوع أخير نهائى إلى الآراء الأفلاطونية التى كان أرسطو بادىء ذى بدء مولعا بالطعن عليها ولهجا بتفنيدها وتفويق سهام التثريب إليها . انه نبأنا لأول الأمر أن المثل والصور الأفلاطونية المفارقة التى هى أسماء فارغة وألفاظا جوفاء خاوية ، وأن الشىء الشخصى الحقيقى هو دائما مؤلف من هيولى وصورة لا محالة ، وأن الصورة توجد البتة فى هيولى ، ثم لم يلبث أن جاءنا أخيرا بنموذج من ذلك المفارق عينه ،

---

(١) العنايه الموجبة فى آخر الفقرة عناية الرئيس بالمرؤس بخلاف السالبة التى فى صدر الفقره . المعرب .

إذ فى النهاية نلفى أن مصدر ومبدأ كل العملية التى بها تصبح الهيولى وقد صبغت بالصورة هو موجود ماعبارة عن صورة محضة ، وحقيقة مفارقة صرفة موجود قائم خارج كل تطور وجوده ينشئه وأصـــل تحذير أرسطو عن المجازات والاستعارات الشعرية هو القول بان الله يحرك العالم لكونه موضوع شوقه ومركز عشقه وتوقه :